سؤال الهوية في الخطاب العربي الحديث The Question of Identity in Modern Arabic Discourse

عارف عبد صايل الريشاوي⁽¹⁾ جاسم محمد عباس الصميدعي⁽²⁾
Arif Abd Sayl⁽¹⁾ Jasim Mohammed Abbas⁽²⁾

الملخص

إنّ البحث عن الهوية في الخطاب العربي الحديث يتطلب فهماً واعياً ومسؤولاً، ولا يخفى على أي باحث أنّ الهوية تمثل بناءً فكرياً، وتتطوي تحتها مفاهيم كثيرة؛ بعضها له علاقة بالدين والإيديولوجيا، وبعضها ينطلق من مفاهيم إنتاجية عليا تشكل القاعدة المهمة في أيّ بناء اجتماعي، وهناك محاولات عدة لطمس هذه الهوية عن طريق مفاهيم جديدة تحاول الفصل بين ماضي الأمة وحاضرها، وهذا التجاهل مصدره إما أن يكون جهلاً بها، وإما محاولة لطمس هذه الهوية عن قصد، وحقيقة أن الحديث عن الهوية في الخطاب العربي الحديث يشتمل على إشكالية معرفية، وتتجاذبها تيارات فكرية ومذهبية شتى، فهي من التشابك والتداخل بحيث يصعب الفصل بينهما بسبب هذا التداخل الفكري والمعرفي والبنوي الذي تشكل معادلة صعبة في ظل تلك التيارات المتصارعة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، العولمة، الخطاب، اللغة.

Abstract

Searching for identity in modern Arabic discourse requires a conscious and responsible understanding. It is well known for any researcher that identity represents a superior construct, and it involves many concepts. Some of these concepts relate to religion and ideology, while others are based on higher productive concepts that form the important basis of any social construction. There have been several attempts to obliterate this identity through new concepts that attempt to separate the nation's past from its present. This disregard is a result of either ignorance of identity or an attempt to intentionally obliterate it. Honestly, identity in modern Arabic discourse involves an epistemological or cognitive problem, and it has been attacked by various intellectual and sectarian currents. These currents are so intertwined and interdependent that they become difficult to separate as a result of this intellectual, mental, and structural overlap formed by a difficult equation under these conflicting currents.

Keywords: discourse, globalization, Identity, language.

⁽¹⁾ Professor Doctor At The University Of Anbar, Specializing In Modern Literary Criticism, In The Arabic Language Department At The College Of Arts, Iraq.

⁽²⁾ Professor Doctor At The University Of Anbar, Specializing In Modern Literary Criticism, In The Arabic Language Department At The College Of Arts, Iraq.

*Corresponding author: dr.arif.abd@uoanbar.edu.iq

⁽¹⁾ استاذ دكتور، جامعة الانبار، النقد الأدبي الحديث، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، العراق.

⁽²⁾ استاذ دكتور، جامعة الانبار، النقد الأدبي الحديث، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، العراق.

*للمراسلة: dr.arif.abd@uoanbar.edu.iq

المقدمة:

إنَّ الباحث عن الهوية العربية في الخطاب العربي الحديث يلمس تجاهلاً للهوية، وهذا التجاهل مصدره إما أن يكون جهلاً بها أو محاولة لطمس هذه الهوية عن قصد، والحديث عن الهوية في الخطاب العربي الحديث يشتمل على إشكالية أبستمولوجية أو معرفية، وتتجاذبها تيارات فكرية ومذهبية شتى، فهي من التشابك والتداخل بحيث يصعب الفصل بينها؛ بسبب هذا التداخل الفكري والمعرفي والبنوي الذي تشكله معادلة صعبة في ظل تلك التيارات المتصارعة، التي تحمل في طياتها صراعات قائمة على أرض الواقع لا يمكن إنكارها تتمثل في الصراع بين التراث والمعاصرة؛ ولهذا شكّل سؤال الهوية في عصرنا الراهن تحديات شتى وصراعات مختلفة ثقافية وفنية ومذهبية وحتى عقائدية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يعالج قضية مهمة وفاعلة متمثلة بسؤال الهوية الذي يقوم على البحث في طبيعة الانتماء والوجود، والذي طالما شكل تحدياً على مستوى وجود الأمة، وهذا التحدي الذي لايزال يهدد وجودها وكيانها، فمن المعروف للدراسين أن الهوية هي حصيلة عناصر متنوعة مثل اللغة والدين والانتماء والوجود وغيرها، وقد حاولت هذه الدراسة ان توضح هذه المفاهيم من خلال الوقوف عندها.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن تشخيص الجوانب المرتبطة بسؤال الهوية في الخطاب العربي الحديث، ورصد كيفية اختلاف الرؤى في تلقي وتلقف كل ما هو قادم من الآخر من دون وعي دون الأخذ بخصوصية أمتنا، وبين البحث مختلف آراء الباحثين على مختلف مشاربهم في كيفية تعاملهم مع كل ما هو قادم من خلال جعل هوية الأمة حاضرة في كل زمان ومكان .

منهج البحث:

قامت هذه الدراسة على اعتماد المنهج التحليلي الوصفي بتحديد اتجاهات الباحثين في رؤيتهم لمفاهيم الهوية، من خلال ما طرحت الدراسة من تساؤلات، فتم اعتماد آراء الباحثين العرب المؤثرين في الساحة العربية لبيان توجهاتهم واختلاف آرائهم في قضية الانتماء واللغة والعولمة وبقية المفاهيم المرتبطة بالهوية، إذ تم تحليل تلك الأفكار وبيان مدى صلاحيتها من خلال ما طرح في مشكلة البحث.

الدراسات السابقة:

-الخطاب النقدي العربي الحديث سؤال الهوية، د. عبدالغني حسني، منشورات المملكة المغربية جامعة محمد الأول، 2021، وهذا الكتاب عبارة أعمال الندوة العلمية الدولية، يقوم هذا الكتاب على تحديد توجهات الباحثين العرب للنظر إلى الهوية والتحديات التي تهدد وجود الأمة.

-سؤال الهوية في الفكر العربي المعاصر، مسعودي حنان، جامعة قاصدي مرياح ورقلة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 2018، وهي عبارة عن رسالة ماجستير بينت فيها الباحثة مشكلة الهوية والتراث في الخطاب العربي الحديث.

-تقد التراث ، عبدالاله بالقريز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014م. وهو عبارة كتاب جدد فيه الباحث طبيعة واختلاف وجهات النظر للتراث بين رافض له وآخر لا يجد في تركه إلا تخلي عن حاضر الأمة ومستقبلها.

- محمد عابد الجابري ، نحن والتراث - قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1993م. وهو عبارة عن قراءات معاصرة للتراث الفلسفي الإسلامي وهو يقوم على تعدد تلك القراءات في النظر للتراث.

التمهيد:

تختلف الهوية في تعريفاتها باختلاف المعاني المعاصرة؛ إذ لا يوجد تعريف جامع مانع لمفهوم الهوية، فقد تتبلور صورة الهوية من خلال التفاعل العلائقي بين الذات والآخر⁽¹⁾، إذ إنها لا تتحدد في " مجرد النشأة والانتماء، وإنما تكمن على العكس في العمل والضرورة، فالإنسان لا يرث هويته بقدر ما يخلقها .. فالهوية الإنسانية إبداع مستمر يخلق الإنسان هويته فيما يخلق عمله وفكره"⁽²⁾ ، وعليه "يمكن تعريف هوية كل شخص وفقاً لهويته الذاتية، أي وفقاً للصورة التي يملكها عن نفسه"⁽³⁾.

إنَّ المنجز الثقافي للمجتمع العربي يطرح إشكالية تفرض وجودها وبشكل مباشر، وتتطلب تضافر الجهود من أجل محاولة الوصول إلى فهم واضح ودقيق لها، وإنَّ تشظي الهوية التي تعرّض لها الشعب العربي، ولا سيّما بعد أحداث غزة الأخيرة تظهر بلا شك ذلك التشظي، فمحاولات الباحثين العرب في وضع رؤية جديدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه تتطلب خطوات صحيحة وفاعلة من الجميع، بدءاً من محاولة عصرنة التراث التي أطلقها (محمد عابد الجابري)، وعلى الضدّ كانت طروحات (عبدالله العروي) التي تدعو إلى مقاطعة التراث، فهي بحسب وجهة نظره السبب في تأخرنا للالتحاق بالأمم، ويدعو في الوقت نفسه إلى النهوض والتمرد على سكوننا الماضوي العميق⁽⁴⁾، فمثل هذه الدعوات هي تشكل بلا شكّ تشنّاتاً للهوية التي لا يمكن من دونها تحقيق الذات،

(1) ينظر: أدونيس، علي أحمد سعيد، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، ط1، دار الآداب بيروت، 2002، ص24

(2) المصدر نفسه: ص247.

(3) ميكشلي، الاسكندر، الهوية. ترجمة علي وطفة، ط1، دار الوسيم للطباعة والنشر، دمشق، 1993، ص99.

(4) جاري، جويده، القطيعة عند العروي: شرط دخول التاريخ، مجلة أفكار وآفاق. الجزائر، ع 6، مج 4، 2015، ص372.

وليس دعوات العروبي محطّ انتقاد بقدر ما هي دعوة إلى عزل التراث جانباً كي نقرأ المعاصرة بعين محايدة، فربما ننفق وربما نقف، ولكن تبقى قضية فصل التراث وعزله مسألة تحتاج إلى إعادة النظر.

وسنقف عند بعض من المفاهيم لتحديد البعد المعرفي لسؤال الهوية، وارتباطاته الذهنية في حاضر الأمة ومستقبلها:

أولاً: الهوية التراثية قراءة في المفهوم والدلالات: .

تنتقل هذه الدراسة في البحث عن سؤال الهوية في الخطاب العربي الحديث من خلال مرجعياته التراثية التي تعدّ الأساس الذي تنطلق منه الذات في حديثها عن الهوية؛ لأنّ البحث عن الذات يتطلب أرضاً صلبة يتكئ عليها من يريد أن يتناول قضية مهمة مثل هذه القضية، فالهوية التراثية في أيسر مفاهيمها "هي الحامل لأصول القيم ومعالم السلوك، والعامل على تحديدها، والموجه للعواطف والعقول لتحويل المثل العليا في المجتمع إلى واقع معيش يحدد لهذا المجتمع خصوصيته وتميزه"⁽¹⁾، حقيقة منذ بزوغ فجر النهضة العربية في نهاية القرن التاسع عشر وما تلاها من حقبة تاريخية، فقد كانت هنالك دعوات من بعض العرب للبدء بعصر جديد لإحياء كل التراث العربي بمختلف مساربه ومشاربه من أجل مسايرة التطور العالمي، وهذه الدعوات شملت مختلف الاتجاهات، وفي الأدب ظهرت مدارس كثيرة تدعو إلى التجديد والنهوض بالشعر العربي من سباته الطويل الذي مرّ به بسبب التخلف والتقليد الأعمى الذي أوصل الأمة إلى حافات الانهيار دون النظر إلى خصوصية العرب، وكانت تلك الدعوات تحاول أن ترسم للأمة هويتها الخاصة حتى تمكّنها من أن تحظى باحترام الدول الأخرى وإقامة دولة موحدة، منطلقين من تصورهم للتراث الذي لا يعني بصورته المقيدة ما ورثناه من قيم وتقاليده؛ لكنّه أوسع من هذا المفهوم، إنّه كلّ الخبرات والطاقات والفكر الثقافي والعلمي، "ولعلّ أول ما ينبغي هنا هو أن تداول كلمة التراث في اللغة العربية لم يعرف في أيّ عصر من عصور التاريخ العربي من الازدهار ما عرفه هذا القرن؛ بل يمكن القول منذ البداية: إنّ المضامين التي تحملها هذه الكلمة في أذهان العرب اليوم من عرب القرن العشرين لم تكن تحملها في أي وقت مضى...، يمكن أن نلاحظ الخاصية التي يتميز بها مفهوم التراث في خطابنا العربي المعاصر يجعله غير قابل للنقل بكل شحناته الوجدانية ومضامينه الأيديولوجية إلى أيّ لغة أخرى"⁽²⁾، فهذا المعطى الفكري يحمل دلالات خاصة تمكّن العرب من النهوض في ظلّ ثورة فكرية شاملة من غير قطع الجذور مع التراث والانفصال عنه، وهو ما عملت عليه تلك الدعوات في عصر النهضة لإقامة أمة موحدة غير مجزئة تنطلق من تراث صلب.

وظهرت بعض الدعوات لقطع الصلة بهذا التراث؛ لأنّه يقف حجر عثرة أمام عجلة التطور، ولا سبيل لمواكبة دول العالم إلّا بالتخلي عن هذا التراث الماضوي المتهاكك -بزعمهم- وهذه الدعوات تعددت أصواتها من الخليج

(1) عطية، عاطف، في الثقافة الشعبية العربية بنى السرد الحكائي في الأدب الشعبي. ط، مطبعة جروس برس، بيروت 2016، ص 7.

(2) الجابري، محمد عابد، التراث والحداثة. ط1، المركز الثقافي العربي. بيروت، 1991، ص 21.

إلى المحيط، ومن الذين نادوا بذلك اللبناني حسين مروة في كتابه "النزعات المادية في الإسلام"، والمصري حسن حنفي في كتابيه: "التراث والتجديد" و "من العقيدة إلى الثورة"، والجزائري (محمد أركون) في كتابه "تاريخية الفكر الإسلامي"، والمغربي (محمد عابد الجابري) في كتابيه "نحن والتراث" و "تقد العقل العربي".

وعلى هذا التراث بكل ما يحمله من قيم ومعالم وتقاليد يمثل مرتكزاً أساساً لكل من يريد لجذوره أن تمده بطاقات فاعلة في حاضره ومستقبله، بعيداً عن كل التيارات التي تريد أن تتال من هذا التراث بأي شكل من الأشكال بحجة واهية، وما قدمه الكثير من الذين يرون أن الماضي أصبح عالة على الحاضر، فلا بد من ثورة تطيح به حتى تستطيع الأجيال أن تخطو بخطوات ثابتة، وهذا مما ولد إشكالية بين تلك الدعوات حول سؤال التراث والهوية، فهو "سؤال الصلة التي تربط حاضر الثقافة والمجتمع بماضيها، ولا فرق أن تكون الصلة تلك المفكر فيها، صلة واقعية تاريخية... أو صلة مفترضة متوهمة صناعية وهو الغالب على تفكير أي مجتمع في ماضيه"⁽¹⁾، فسؤال الصلة الذي يشكل لب المشكلة، فهذه البلدان تربطها بتراتها روابط أكثر منها تاريخية ومعرفية بعضها يتجاوز الروحي والفكري، ومحاولة التقرب من هذه المسلمات أشبه باحتلالهم، ويشير الكثير من الباحثين إلى أن هذه الصلة جاءت بسبب الطبيعة الأيديولوجية للتراث، فهل معنى ذلك أنه لا سبيل إلى إدراك التراث لذاته؟ أو بتعبير آخر لا سبيل إلى دراسة التراث دراسة علمية خالصة بعيدة عن المواقف الأيديولوجية⁽²⁾، نحن نعلم بكل تأكيد أن التراث والهوية لا يوجدان في ذاتهما؛ بل هما موقفان يحددان قراءتنا لهما، وهذا يعني بلا شك وجود تأثير أيديولوجي سابق على كل قراءة هو الذي يحددها ويمنحها تصورات خاصة، ويبقى السؤال الأهم: من أيقظ هذا الفكر وحدد النظر إلى التراث ومنحه كل هذه الإشكالية؟ فسؤال التراث ما كان ليظهر فجأة على سطح الوعي العربي لو لم يوجد من يوقظه أو يوفر لانبعاثه الأسباب، ولقد أيقظه الآخر الأوروبي بمدنيته وثقافته وأسئلته التي اندفع الفكر العربي يجيب عنها⁽³⁾.

وفي صراع الحضارات تبدو المجتمعات الفقيرة أو الأضعف في حالة من الإقصاء والعزلة، وتتولى القوى الكبرى إدارة هذا الصراع، وتعمل على تشتت تلك الدول وتمزيق هويتها، بالمقابل فإن هذه الدول الضعيفة تبذل كل شيء من أجل المحافظة على هويتها، فتكون في حالة تحد كبير يستنفر منها كل طاقتها في سبيل ذلك، وهذا الأمر يحتاج إلى تضافر كل الجهود، ومنها العودة إلى الجذور الأولى والتمسك بالتراث؛ لأنه المنفذ لها من كل المحاولات التي تعمل على طمس هويتها الثقافية والاجتماعية. وهذه المحاولات للعودة إلى التراث يحفز الشعور بالانتماء إلى الهوية عبر التشارك بين أفراد المجتمع الواحد، كما قال (هيدغر): "بأنها قدمت بطابع الوحدة، وهذه الوحدة التي ليست هي الفراغ الذي يدوم ويستمر في انسجام فاتر عن كل علاقة، إنها الوحدة في ذاتها

(1) بالقزيز، عبد الإله، نقد التراث، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014، ص19.

(2) ينظر: حساين. نادية. إشكالية التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر - قراءة تحليلية نقدية لأهم مشاريع النظرية التراثية. (اطروحة دكتوراه)، الجزائر. كلية العلوم الاجتماعية والانسانية. 2015، ص34.

(3) ينظر: بالقزيز، عبد الإله، نقد التراث، ص19.

اختلاف مبعداً للموقف الساذج الذي ينظر الى الهوية كانسجام⁽¹⁾، إذن فالعودة إلى التمسك بهذه الهوية يأتي من خلال الانسجام بين جميع مكونات المجتمع، بحيث لا يشعر أي فرد فيها بالاختلاف أو التهميش أو الإقصاء، وهذا الأمر يتطلب من الجميع التمسك بالتراث وجعله الأرض الصلبة التي يتكئ عليها الفرد ضد كل المحاولات التي تنال من وجوده، وتحاول نزع هويته بالإجبار عبر محاولات مختلفة.

إن محاولات تعزيز الشعور بالانتماء لأي مجموعة يتطلب أن تجعل من أفعالها التي تمارسها في سبيل إدامة صيرورتها أن تكون فاعلة في المجتمع وظاهرة للعيان، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون الهوية ذات دلالات محددة أو شيئاً عابراً يمكن أن يُخطى بسهولة؛ لكنه وجود يتحكم بمصائر أمة بكاملها يلامس كل ما يدعو إلى وجودها وتاريخها، لأنه التراث بكل ما فيه من منظومة قيمية وتاريخ حافل بكل ما فيه من انتصارات ونكبات، وهو ما يميز شعباً عن آخر، فلا قيمة للوجود إذا تلاشت الهوية، وانعدمت الخصوصية للأمة، فهي تمنحها الخصوصية والتميز، وهنا تتجلى روح الأمة وهويتها وحضارتها التي هي مصدر الثراء الفكري والمعرفي، فهذه دلالة الهوية، وهذا هو ما يميزها ويمنحها التفرد، وتبرز أسئلة الهوية حين يكون هنالك تعارض بين ما موجود وبين ما هو دخيل، فالمدخلات التراثية تكون في حالة إثبات وجود بين هذا الدخيل وبين تلك المنظومة القيمية التي تتعارض معها بكل الصور والاشكال، فتبرز الهوية بوصفها مدافعاً عن كل تلك المدخلات بصورة مباشرة لا تتحمل التأخير، بل هي ردّ طبيعي يمثل ذلك السياق الحضاري، فالعودة إلى الجذور "هم طاغ في العديد من ثقافات العالم المعاصر، ولا سيما تلك التي تعاني أزمة الهوية في خضم تصاعد المثاقفة على نحو غير مسبوق إلى سرعة وكثافة وشمول في تاريخ العلاقات بين الجماعات البشرية"⁽²⁾، ويتطلب الأمر تكثيف البحث عن كل ما يمت بصلة إلى تراث الأمة والبحث عن تلك المكونات الأصيلة في تلك المجتمعات، بغض النظر عن الاختلافات التي يمكن أن توجد بين المجتمعات العربية المعاصرة، وهذا الأمر يتطلب الففز على الاختلاف الموجودة في صيرورة المجتمعات العربية.

فقضية التراث وعلاقته بالهوية وموقف الفكر العربي الحديث حول قضية سؤال الهوية يطرح إشكالية، كونه يمسّ العلاقة بين ماضي الأمة وتراثها الفكري بعلاقته بين الماضي والحاضر، فمثل هذه القضايا تتطلب القيام بخطوات فاعلة من خلال صياغة مشروع فكري يستطيع ردم الهوية التي تجلت نتيجة مفاهيم خاطئة تراكمت خلال العقود الماضية، التي تتمثل بالصدع الكبير التي تعرضت له قيمنا الحضارية من انكاسات متكررة، فتبرز تساؤلات الهوية بسبب الجدل الحاصل بين من يؤيد إنشاء مشروع ثقافي مضاد، ولا ننسى أننا بحاجة إلى إجابة النظر في كثير من الأفكار التي هي مثار جدل كبير بين المهتمين، ولا سيما فيما يخص الخطاب الذي يتطلب موقفاً واضحاً يعرف كيف يستغل كل شيء من أجل تفعيل الدور المنوط بالهوية، وهذه

(1) بنعبد العالي، عبدالسلام، هايدغر ضد هيجل (التراث والاختلاف)، ط2، دار التنوير للنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص84.

(2) الزموري، عبدالحق، مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة، ط3، مطبعة الساقى، بيروت، 1993، ص7.

المواقف تختلف فيما بينها، ولا سيما حين تكون وجهاً لوجه مع ثقافات خارجية؛ فبعض المهتمين يرى أنها تكون في مواجهة ثلاثة تصورات:⁽¹⁾

أولاً: موقف يخشى على الهوية والتراث من الضياع، فيعلن معارضته للثقافة الوافدة الدخيلة، فيقدم على مناقشتها ملتصقاً فيها مواضيع ضعف وتناقض، أو مواضيع تعارض الشريعة الإسلامية.

ثانياً: موقف يتصدى للدفاع عن الثقافة الوافدة، يؤسس دفاعه في أغلب الحالات على ألا تعارض بين الأفكار الجديدة والشريعة الإسلامية، عاداً أن تلك الأفكار من شأنها أن تطور وتغذي وتفتح آفاقاً للخلق والإبداع.

ثالثاً: موقف توفيق انتقائي، يبغى إقامة كيان ثقافي يجمع بين مقومات الطرفين في صيغة ثالثة.

وهذا الأمر يطرح إشكالية تتمثل بكيفية التوفيق بين كل تلك الآراء للخروج بحل يرضى كل الأطراف، ولكن ليس على حساب الثوابت والقيم، بعيداً عن المواجهة بشقيها التاريخي والفكري، فكل ما ظهر من مواقف لا يخلو من تبعات أيديولوجية مختلفة تمثل آراء ووجهات نظر.

والخطاب العربي الحديث الذي ينطلق من أساس ديني يجعل من الهوية التراثية حاملاً لكثير من اللحظات التاريخية؛ إذ يتأسس هذا الخطاب لأنه يحمل هوية جماعة دينية معينة، فمثلاً الهوية الدينية الإسلامية هي تحمل فكر جماعة؛ لأنها تنطلق من أساس ديني إسلامي خاص بالشرائع والأحكام الدينية، وكل ما له صلة بالخطاب الديني من تشريعات وأحكام ورخص، ومن هنا تشعب الخطاب الدني وأصبحت الهوية الإسلامية مثار جدل مختلف من وجهات النظر، وتداخل الديني مع التاريخي، ومنهم من يرى أن الهوية الدينية تركز على السيرة النبوية.

والخطاب العربي الحديث يعبر عن فكر ثقافي حديث يرتبط بكل ما هو جديد؛ لأنه يعبر عن ثقافة عربية خالصة، ويربط هذه الثقافة بأفكار تجعله يتحرك داخل حيز ثقافي يجسد ثقافة عربية تنطلق من مفهوم عربي لربط الثقافة بالدين من جهة والتراث من جهة أخرى، بعيداً عن كل تلك الدعوات التي تحاول أن تعيد كل ما في الثقافة العربية إلى الآخر، أو من خلال نبذ التراث والقطيعة معه، ويرى الجابري أن الفجوة قائمة وعريضة ما بين ماضينا ومستقبلنا المنشود، وفيما نسميه التراث يوجد هناك في مدة من مدد الماضي. إنه تراث حضارة توقفت فيها جوانب التقدم والإبداع منذ زمان، فأصبحت بعيدة عن واقع العصر الذي نعيشه فيه، والفكر العربي أصبح فكراً عالمياً يوجد هو أيضاً هناك كحلقة في سلسلة من التطور لم نعش بدايتها⁽²⁾، فالجابري أراد أن يبين أن الفكر العربي لم يعد قادراً على أن يتواصل مع العالم الآخر؛ بسبب أننا لم نعد نمتلك روح العصر، ولكن هذا الأمر في حقيقته يحمل شقين؛ الأول: أننا لم نتفاعل مع متغيرات العصر ولكن هذا الأمر ليس بسبب التراث؛

(1) الأمين، جلال، العولمة، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2009، ص48-49

(2) الجابري، محمد عابد، التراث والحداثة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص62.

بل على العكس، تراثنا يشجع على التفاعل مع كل متغيرات الحياة الجديدة؛ لأننا على يقين تام أن العيب يعود إلينا بوصفنا كأمة عربية ارتضت بما لديها، ولم تعد تنظر إلى المستقبل بوصفه أساساً للتطور، عكس العالم الغربي الذي يتجاوز الماضي؛ ليشكل هويته الجديدة، والأمر الآخر هو التراث كما يرى يقف عائقاً أمام التطور هو أمر مردود عليه، إذ مقارنة الغرب بالعرب يتطلب أن نفهم جيداً طبيعة العقل العربي المعاصر الذي رضي بواقعه ولم يعد يفكر بالتطور ولا علاقة للتراث بهذا الأمر؛ لأن الخطاب العربي الحديث يعبر عن مشروع ثقافة، وهناك محاولات جادة وحثيئة لتجعل من هذا التراث نقطة انطلاق نحو التطور من خلال استلهاهم كل معطياته وبعثها في النفوس لجعلها محركاً نحو التطور، أما عكس ذلك فالأمر يعود إلى إشكالية فكر، وإشكالية المثقف العربي "إن مشكلة المثقف لم تعد مع الواقع ولا مع الدول المنظمة، بل هي مع أفكاره بالدرجة الأولى...، وهذا يتطلب مراجعة العقل لنتاجاته ونقده لأنظمتة"⁽¹⁾، إن محاولة ربط هذه المشكلة بالدين يبدو أمراً غير مجد، فهو يتطلب مراجعة للعقل والفكر.

وإن محاولة ربط هذا الأمر بالدين الذي هو سبب التخلف وأنه يقف حائلاً دون منافسة الغرب إلى ما وصلوا إليه، من دون تمحيص وبيان خصوصيته، فأغلب تلك الأدوات والمناهج هي لا تستقيم والنص التراثي العربي إنما تمثل ما انطلقت منه، بمعنى أنه لا يمكننا أن نعتمد على تلك المناهج ولكن يمكن جعلها نقطة التحرك نحو التطور بدليل أن الغرب وما وصل إليه يدين بكل شيء للعرب هو عرف كيف يطبق تلك الآليات ويجعلها بمنزلة نقطة الارتكاز من دون أن يلغي خصوصيته، وعليه نحن يمكن أن نستعير تلك الآليات ولكن لا نعتمد عليها ونجعلها بديلاً عن تراثنا، وفي هذا يقول (طه عبدالرحمن): "أن العقلانية أمر لا بد منه"؛ لأن أصحابها لا قدرة لهم على تبيين الحدود بين ما هو عقلائي وبين ما هو غير عقلائي لقلّة زادهم من أسباب المنطق، وإمّا لأنهم يحملون العقلائي أفكاراً وأحكاماً طواها الزمان ولا عمل بها إلا في عقولهم"⁽²⁾.

ثانياً: سؤال الهوية واللغة:

كثير من التوجهات الثقافية والفلسفية لم تربط ما بين اللغة والهوية، فنظرت إليهما على أنهما منفصلان، ولا توجد علاقة رابطة بينهما، عندما تمّ نظر إلى اللغة على أنها وظيفة تعبيرية عن الأفكار وكلّ النشاطات العقلية المراد منه إيصال فكرة ما للآخر، أو وظيفة تواصلية تتمثل هذه الوظيفة بدور اللغة في التبليغ والتوصيل لكل ما تريده من الآخرين، ومعلوم أن اللغة هي أساس التعايش، ومن خلالها يتم بناء روابط حقيقية تجمع أبناء المجتمع، فضلاً عن كونها وعاء لكل الأحداث الماضية للأمة، فهي سجل المآثر والقيم والعادات والتقاليد، ولكي تبقى رمزاً للتفاعل الحضاري بين الأجيال في مختلف عصورها، وهي أهم وسيلة للتواصل؛ لأنها تمثل "تحقيقاً صوتياً لميل الإنسان إلى رؤية الواقع بطريقة رمزية واللغة كما يقول علماء اللغة نظام المنظمة الرمزية في الحياة البشرية وذلك باستعمال الحركات كالابتسام والنظرة وحركة اليدين للتعبير عن العلاقة مع الشخص الآخر"⁽³⁾، فكل تلك المدونات نظرت إلى اللغة كما أسلفنا على أنها وسيلة جمالية تعبر عن رؤية فنية أو قيمية،

(1) حرب، علي، أوهام النخبة أو نقد المثقف، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996، ص135.

(2) طه، عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، ط1، دار الهدى، المغرب، 2000، ص87.

(3) بركة، بسام، اللغة العربية - القيمة والهوية، مجلة حوليات التراث، ع528، 2002، ص82.

فضلاً عن كونها إراثاً حافظاً لكلّ التراث بشقيه المكتوب والمنقول، ولكن كلّ هذا يجعل من اللغة ذات علاقة ترابطية مع الثقافة، أو ذلك السجل الكبير من القيم والتقاليد التي توارثتها الأجيال بمختلف العصور، لكن بعد عصور التنوير أصبح ينظر إلى اللغة على أنّها تجمع الوظيفتين التواصلية والعلمية، محاولة ربط وظيفة اللغة الثقافية بالوظيفة الحضارية للمجتمع كله، ومن هذا المنطلق تمازجت اللغة والهوية وأصبح سؤال اللغة لا ينفصل عن سؤال الهوية.

واللغة هي أكثر المفاهيم في حياة الشعوب تأثراً بالتحويلات التي تطرأ على حياة الناس والمجتمع على حدّ سواء، فكلّ نشاط يقوم به البشر لا ينفصل عن اللغة، أو ربّما تكون اللغة هي إحدى أدواته، فلولاها لم يحدث التطور وما وصلنا إليه في عصرنا الحديث، ومن هذا المنطلق تبدو علاقة اللغة بالهوية علاقة ترابطية، كما تحمل اللغة كل تطلعات وتصورات البشر وهوهم، فهي تمثل علاقة تفاعل وتبادل للأفكار والخبرات، وهي لا تمثل فقط مكوناتها الداخلية؛ بل تمثل اعتراف الناس بها، فهي ومن ثمّ تحيل رؤية الناس للواقع الذي يعيشونه وتعكس انطباعاتهم وتلقيهم للأحداث التي يؤمن بها⁽¹⁾، فهي وعاء جامع لكلّ التصورات والأفكار التي تمثل حاجات خاصة بين البشر يتواصلون فيما بينهم.

لقد كان للعولمة² تأثيرٌ واضحٌ في كلّ نواحي الحياة المختلفة التي تدعو إلى التغيير الشامل والتجديد، والبحث عن عوالم جديدة تسابق التطور في كل شيء، لكننا نجد أنّ هناك دعوات أخرى تحاول لملمة ما تبقى من تلك المفاهيم وردم الهوية الكبيرة بين دعاة العولمة ومن يريد وضع الأمور في نصابها الصحيح، بدلاً من هذه الفوضى الكبيرة؛ لذا فإنّ هذا الفريق الذي يحاول أن يحرص على تخطّي كل تلك الدعوات، وإعادة النصاب الحقيقي لتلك المفاهيم على سبيل المثال اللغة والهوية والذات وغيرها، ونتيجة لتلك التغييرات التي شملت مختلف نواحي الحياة، فإنّه بات من الضروري أن تكون تلك المفاهيم محطّ اهتمام الباحثين في الدرجة الأولى، كونها تشكل ركناً أساسياً وفاعلاً في الفكر العربي المعاصر، والاهتمام بها لا يقلّ عن أية مفاهيم أخرى لها مساس كبير بثقافة وتكوين المجتمع ومنحه خصوصيته، فهناك ارتباط وثيق ما بين اللغة والهوية؛ لأنّ الارتباط ما بين الفرد ومجتمعه تشكله علاقات عدّة يأتي في مقدّمتها اللغة، لأنها كياناً ثقافياً فاعلاً في حياة الناس، وإذا حاول المجتمع التخلي عن كلّ هذا فإنّ مصيره الاضمحلال والتلاشي، ولما كانت الهوية هي وعي ذاتي يعبر عن الأنا والمجموع، وتمنح المجتمع سماته وصفاته وخصائصه، وأنها أيضاً تأخذ وجودها من تراث الأمة وماضيها وحاضرها، فإنّ اللغة كذلك؛ لهذا تتعاضد الهوية واللغة في منح كلّ أمة سماتها التي تميزها من غيرها، واللغة العربية منحت العرب سماتهم التي لا يشبههم أحدٌ فيها، ولا شك أنّ للقرآن الكريم الدور الأبرز في هذا، وقد اختلف الخطاب العربي في تناول قضية الهوية واللغة، فمنهم من رأى أنّ اللغة والهوية وجهان لعملة واحدة، ومنهم من رأى أنّ اللغة تمنح سمات لكلّ أمة تختلف عن الأمم الأخرى³.

(1) المصدر نفسه: ص 82

(2) العولمة: هي رسملة العالم وتتم السيطرة عليه في ظلّ عامية المركز، نظام العالم الواحد وتفصل الحدود بين الدول ليصبح العالم سوقاً واحداً والتدخل في خصوصيات الدول وطمس هويتها. ينظر

(3) شكر، حارث، وصايل، عارف عبد، حضور الذات والموضوع في تجربة الشاعر العراقي، عدنان الصائغ، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 1، مج 48، 2021، ص 200

لهذا فإنَّ الباحثين المعاصرين أولوا هذه القضايا عنايةً فائقةً بها، وكان اهتمام (محمد عابد الجابري) بقضية الهوية يصبُّ في المنحى نفسه للغة؛ لأنَّهما مترابطان ويأخذان المدى نفسه؛ فهو يحاول أن يجعل للهوية بمفهومها العام في الشخصية العربية استقلالها الخاص، ويسلبها كلَّ ما يمكن أن يجعل منها مادة فاعلة في التراث. "إنَّ القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث؛ بل القطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث، القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث. أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقوماتها"⁽¹⁾، ومن هذا الاهتمام المشترك كان ينظر إلى اللغة على أنَّها تنطلق من الاهتمام نفسه للهوية، فهما يكملان بعضهما.

يطرح الجابري تساؤلات عدَّة عن علاقة اللغة بالفكر، وهل تجسّد تطلعات الأمة نحو غد مشرق يحمل ما تصبو إليه؛ فهو ينظر إلى اللغة على أنَّها ترتبط بالفكر كما ضمنها في مشروعه الفكري، فقد وقف عند هذا الموضوع بشيء من الحذر، فهو يريد: كيف ينظر الآخر إلينا، وما موقع اللغة العربية الفصحى بين لغات العالم، وكيف ينظر إلينا العالم من خلال رصد العلاقة بين الفكر واللغة، وكيف يمكن لنا أن نبيِّن خصائص اللغة الفصحى وطبيعتها البنوية وتراكيبها وكل ما له علاقة بها، وكما بيَّنا سلفاً فإنَّ قضية الشعور بالانتماء، وخصوصية كلِّ أمة تحددها الهوية الثقافية واللغة؛ فالجابري يقول: الجواب الصحيح عن السؤال ما العمل؟ سواء إزاء الثنائية والانشطار اللذين تعانيهما الثقافة العربية نفسها، أو إزاء الاختراق الثقافي وأيديولوجية العولمة يجب أن تنطلق، وقبل كلِّ شيء، من العمل داخل الثقافة العربية نفسها...، فمن المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية⁽²⁾، ومن كلام الجابري نلتبس قدرة العولمة على أن تمارس سلطتها وتفعل ما تريد، وهذا الأمر يعود إلى ضعف في كيان المجتمع الذي يسمح بنبذ بذور الفرقة داخل النسيج الثقافي وهذا ما يسمح بوجود أزمة تشكلها طبيعة المفاهيم والقيم المجتمعية الدخيلة، فالجابري يرى أن تلك المفاهيم لدىها الدور البارز في إخضاع كل المنظومة القيمية للمجتمع إلى جدل التفرقة من خلال بثّ التفرقة بين الشباب، ولا سيَّما أنَّهم أول من يستقبل تلك الدعوات الرنانة التي تحاول نخر المجتمع وتفتيت هويته الثقافية والمجتمعية، فضلاً عن لغته.

إنَّ ما يطرحه الجابري، ولا سيَّما في كتابه "تقد العقل العربي"، في مشروعه المهم يؤكد أنَّ العقل مدخل لكل يقين، ومدخل لكل ظاهرة ثقافية، وترتبط به كل مشروعات النهضة العربية، ولعل اللغة من أهم تلك المشروعات النهضة، فهو يربط كلَّ نهضة فكرية بثورة لنقد العقل، وإنَّ العقل العربي لم يبدأ إلَّا بعد مرحلة التدوين⁽³⁾، على

(1) الجابري. محمد عابد، نحن والتراث - قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص 12.

(2) الجابري. محمد عابد، العرب والعولمة - ثقافة الاحتراق، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1998، ص 21.

(3) بدأ عصر التدوين عند العرب في القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي. ينظر فوزي، فاروق عمر، التدوين التاريخي عند المسلمين، ط1، دار البارودي للطباعة والنشر، أبو ظبي، 2004: 37

الرغم من أن هذا القول فيه من الخلل الواضح؛ لأنه لا يمكن نفس تراث ثقافي ضخم كان موجوداً في الجاهلية والإسلام⁽¹⁾.

طرح الفيلسوفان أرسطو وأفلاطون موضوع علاقة اللغة بالفكر، والتساؤلات عن هذا الموضوع مطروحة منذ نشأة اللغة؛ فأرسطو لديه مفهوم للغة يختلف عن سبقه أو عاصره، فهو يرى أن اللغة تتمثل بطبيعة الانفعالات والعواطف التي تعتمل داخل النفس الإنسانية، فهي أشبه بالمحركات التي تتوالد عنها لغة الإنسان، ويرى أن أصوات اللغة، ويعني بها "الكلام" تختلف عند الشعوب⁽²⁾، وكل من ينظر إلى مفهوم اللغة وعلاقتها بالفكر يجد أنها تنطلق من علاقة تفاعل، وهو ما يدل على أن الفكر يسبق اللغة؛ لأن الإنسان قبل أن يتكلم يفكر، وهذا المنطلق الفلسفي شكل ما دار عند اليونانيين من أن الفكر هو أساس الفهم، وأن البربري من لغة أخرى لا يفهم، من هذا المنطلق يرى الجابري أن لغة العرب لغة حسية لا تاريخية؛ بمعنى أن أي تطور يصيب الحياة يؤثر في اللغة؛ فالخليل بن أحمد الفراهيدي³ حينما أراد تأليف معجم العين ابتعد عن الحواضر، وذهب إلى البوادي التي لم تختلط ألسنتهم بالعجمة⁽⁴⁾، الذي يعيننا هو ربط اللغة بالفكر، وعلاقتها بالهوية التي هي ثقافة كل بلد، ومن ثم فإن البحث عن تلك العلاقة يسهم في تكوين الفكر.

أما زكي نجيب فيرى أن اللغة تكتسب أهميتها من علاقتها بالفكر الذي يتميز بالتجديد الذي يكون هو أساس تحديد علاقتها بالهوية، فكلما كان الخطاب الفلسفي قائماً على التجديد اتسمت تلك العلاقة بالتجاذب، فهو يتساءل كيف يمكن أن نفرق بين اللغة والفكر: "من أوهام الإنسان التي توشك أن تكون جزءاً من فطرته ظنه بأن فكره شيء ولغته شيء آخر.... كأنما الفكر ينسكب في العبارة اللفظية كما ينسكب الماء في القدر، أو كأنما اللغة يمكن أن تتعري عن الفكر فتكون كالجسد العاري، لا يكتسي إلا إذا لبس ثوباً من أفكار"⁽⁵⁾، لهذا هو يستغرب كثيراً ممن يفرقون بين اللغة والفكر؛ لأن اللغة والفكر عنده لا ينفصلان.

ثالثاً: الهوية والعولمة:

تبدو علاقة الهوية بالعولمة علاقة تجاذب تتحكم فيها أمور عدة؛ فهي قائمة على علاقات شدّ وجذب، ولعل ما حظي به العصر الحديث من تطور على الصعيد كافة جعل هذا الأمر مطروحاً بشكل يثير أكثر من تساؤل؛ لأن القضية تمثل في بعض من جوانبها صراعاً دائماً بين المهتمين بهذا الجانب وغيرهم، فهي، أي العولمة، تدخل في كل مفاهيم الحياة، ولعل الثقافة والفكر من تلك الميادين ذات التماس المباشر معها، وعلى الرغم من أن تلك

(1) الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص192

(2) روبنز. ر.ه. موجز تاريخ علم اللغة في المغرب. ترجمة أحمد عوض، ط1، عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص46.

(3) الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ-170هـ) من أئمة النحو وواضع علم العروض اسمه: الخليل أحمد بن عمرو بن تميم ولد في البصرة ومات فيها وهو من قبيلة الأزدي، وهو أستاذ سيبويه في النحو، ينظر: الزركلي، خير الدين، الاعلام، ط15، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص314/2

(4) الجابري. محمد عابد، تكوين العقل العربي، ص 192.

(5) محمود، زكي نجيب، تجديد الفكر العربي، مؤسسة الهداوي، القاهرة، د.ت، ص 155

العلاقة هي علاقة صراع متواصل، ودائماً ما تأخذ الهوية صفة الطريدة التي تلاحقها الأسود، كما ذكر بعض الكتاب المعاصرين أن الهوية مطاردة ومحاصرة وملاحقة من العولمة التي تجهز عليها وتتغذى بها، وعلى الرغم من ذلك تبقى الهوية تقاوم وتجادل كل أصناف الصراع، ومطالبة بالأمن والأمان والاستقرار والتثبيت بالوجود والديمومة⁽¹⁾، ويبقى الصراع ما بينهما قائماً، ويتطلب هذا الأمر أن نخرج من عباءة الوطنية والقومية إلى مفهوم واضح كبير يجعل من العالم كله مكاناً واحداً؛ لأن العولمة "هي صيرورة العالم مكاناً واحداً"⁽²⁾.

مما يعني أن العولمة هي التي تقرر مصير العالم ووجوده، ومن يريد ألا يدخل هذا العالم فسوف يبقى متخلفاً، فهل هذا الأمر حقيقي أم أنه نوع جديد من الاستعمار يلبس ثوب التطور والتكنولوجيا؟ فالقوميات ستخفي في ظلها، وتنتشر مفاهيم لا تمت بصلة إلى مجتمعاتنا العربية، التي تجعل من التراث والتقاليد محرماً ودافعاً لتحفيز الشباب للعمل على وفق هذا التراث الذي يمدّمهم بكل أسباب القوة، فهي تدعو إلى القطيعة مع التراث من خلال التمازج بين الشعوب كما تدعي³.

فالعولمة عملية تواصلية تقتضي إزالة الحواجز بين الشعوب أولاً وما بين الدول ثانياً؛ لتعمل على تقسيم المقسم وتجزئته، ومن ثم فإنها تعزز حالة الصراع والتشظي.

إن العولمة أيضاً هي العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب والتي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحد، ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا ينتشك وعي عالمي وقد أخذت الدول الكبرى من خلال بوابة الديمقراطية باباً تدخل منه الدول الكبرى في التدخل بشؤون الدول الأخرى من خلال وسائل الاعلام لتزييف الواقع⁴، وقيم موحدة تقوم على معاهدات إنسانية ومن خلالها ينهض وعي عالمي، وقيم موحدة تقوم على معاهدات إنسانية⁽⁵⁾، والتساؤل الذي يشكل طروحات مستقبلية حول علاقة الهوية بالعولمة وماهيتها وطبيعتها تشكل ضمن إطار وعي جمعي في حدود المكان الذي يمثل امتداداً زمنياً على طول العمر الافتراضي للسياسة التقليدية عن الدول في علاقات وجهاً لوجه، وهذا أصبح "مجالاً كونياً مفتوحاً لتفاعلات أبعد من نطاقه المحدود، ويدخل فيها أفراد غير موجودين بالمكان، وأحداث لا تحدث في المكان ذاته"⁽⁶⁾، فالعولمة التي تكون في ضمن حدود وخصوصية الدول هذا يعني أنها لا تقع ضمن الحدود الضيقة للعالم بل تتعدى مكانتها من الخاص إلى

(1) ينظر: حمدي. مصطفى، العولمة آثارها متطلباتها وآثارها، ط1، مركز إدارة البحوث والدراسات، ابو ظبي، 1997، ص28.

(2) أشكروفت، بيل. م. دراسات ما بعد الكولونيالية. المفاهيم الرئيسية. ترجمة أحمد الروبي واخرون، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 188.

³ ينظر: حمدي. مصطفى، العولمة آثارها متطلباتها وآثارها، ص28

⁴ تشومسكي، نعوم، العولمة والارهاب: حرب أمريكا على العالم والسياسة الخارجية الامريكية واسرائيل، ترجمة: حمزة المزيني، ط1، مطبعة مدبولي، القاهرة، 2003، ص88.

(5) ينظر: أحمد، بن نعمان، أشهدي يا جزائر، ط1، دار الأمة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 2002، ص12.

(6) أبو ضيف. أحمد سيد، الهيمنة الامريكية نموذج القطب الواحد سيناريوهات النظام الجديد، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 3، 2003، ص23.

العام، فهي على وفق هذا المنظور لا تتعرف أولاً بالحدود، فهي تعزيز لكل ما من شأنه أن يفتت وأن ينقل مركز التحكم من الخاص إلى العام، ومن ثم فهي تتعارض مع مفهوم الهوية الذي يكرس الوحدة، فهي تدعو إلى التجزئة.

وهي بذلك تنقل الأشياء من مسارها الخاص إلى العام، ولما كانت الدول تعمل على إنشاء الحدود لتمنح دولها الاستقلال والوحدة، والحدود من مظاهر الوحدة، وأنها تعزيز للسيادة والوحدة، والعولمة على خلاف هذا الأمر؛ فهي في مسعاها تعمل على الهيمنة، وتفتت سيطرة المكان من لدن أصحابه عليه، والقفز على كل الثوابت والخصوصيات، التي تعرف بها دولة عن دولة، أو هو نسقها الثقافي المتعارف عليه، فإنها لا تعترف بكل هذا، وهذا يسهم في تفكيك عناصر الهوية وما يلحق بها من مفاهيم، لتجرد الشعوب من مكوناتها ليصبح شعباً ليس لديه ما يميزه من بقية الدول والشعوب⁽¹⁾، فهي تفرض سيطرتها على تلك الشعوب وتسلبها حريتها في المجالات كافة، فضلاً عن قيامها بتدوير الهوية وجعلها تتلاشي شيئاً فشيئاً، ويقول بعض الباحثين العرب: إن العولمة تعقل العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات والأفراد، عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية، وسيطرة التقنية في حقل العلم، وسيطرة الشبكة في حقل الاتصال⁽²⁾.

فالعولمة عند (طه عبدالرحمن) هي السيطرة على مقدرات الشعوب في كل النواحي، فإرضاء سيطرتها وما تريده في حجج كثيرة، كلها تظهر التطور وتوظيف التقنيات، لكنها تحمل في طياتها الكثير من مفاهيم التحكم بالعالم، ويرى (محمد عابد الجابري) في العولمة أنها تقوم على إفراغ محتوى الهوية الجماعية، فتدفع بها إلى التنشيط والتشتت؛ لكي تجعل للناس مكاناً بلا مأوى ولا وطن ولا مكان ينتمي إليه؛ فتتلاشى الدولة ويحل محلها التفرقة والتشردم في ظل حروب داخلية⁽³⁾، وهو ما تسعى إليه العولمة بكل تجلياتها وأشكالها، من نبذ بذور الفرقة والتشتت في كل أمر يوحد أبناء البلد أو الأمة، فهي لا تختلف عن الاستعمار لكن بوجه جديد، فهي لا تستعمل القوة ولا الدبابات؛ بل تأتي بحجة التطور وتوظيف كل ما من شأنه أن يعود بالرفاهية والتقدم كما هي ترى، وما خفي كان أعظم.

تحاول أن تشتت وتفترق الحدود والقيم القانونية والسياسية من محتواها، وتجعل العولمة بديلاً عن كل هذا بوسائل وطرائق حديثة وتقنيات، مثل: وسائل التواصل والشابكة (الانترنت)، وكل القنوات الفضائية، لتحل مكان كل التقاليد والقيم الثقافية بحجة مواكبة التطور، لتدمير كل قلاع الثقافة والقيم، فتحاول طمس كل خصوصيات الثقافة للبلدان، فهي تتخذ من تقنيات المنظومة الإعلامية منفذاً للتضليل، متجاوزة كل الأشكال التقليدية في طرح ما

(1) ينظر: الجابري، محمد عابد، حفريات من الذاكرة من بعيد، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص25.

(2) عبد الرحمن، طه، حوارات من أجل المستقبل، ط1، دار الهدى، المغرب. (ط1). دار الهدى، 2000، ص87.

(3) ينظر: الجابري، محمد عابد، حفريات من الذاكرة من بعيد، ص25.

تريده، فهي تعد الإعلام الحل الأمثل في تنفيذ ما تريده، من خلال إنتاج وعي فكري لرؤية العالم الجديد⁽¹⁾، فهي إذن تحاول بكلّ السبل ووسائل التطور الحديث تغيب وتذيب الهوية الوطنية أمام مشاريع الضخمة، التي تنفق عليها ملايين الدولارات من أجل بناء مجتمع ودولة يبتعدان كل البعد عما يربطهما بتاريخها وتراثها، ولا شك أن للهوية الثقافية الحصنة الكبرى من هذا الهدم، فمن تلك الدعايات تغيب الروح الجماعية وإحلال الروح الفردية بدلاً عنها؛ لتعزيز حالة التشتت والتفرقة حتى يكون الإنسان يعيش لنفسه ومن أجل ذاته، رامية بكل تلك التقاليد والقيم عرض الحائط، بحجة أن يعمل الإنسان لبناء ذاته بعيداً عن الآخرين، ومن هنا تبدأ عملية الهدم مسخرة كل وسائل الإعلام من أجل هذا الهدف، وهو ما ذكره الكاتب (طه عبدالرحمن) الذي سبق ذكره حين تحدثت عن وسائل ثلاث وظفتها العولمة في سبيل سيطرتها على العالم، وهي سيطرة على وسائل التواصل الإعلامي، وعلى الشبكة (الإنترنت)، فأخرجت الإنسان إلى الكونية والعالم الآخر بعد أن كان في مجال ضيق ومحدود، وأصبحت المعلومات تتناقل بسرعة كبيرة، وأصبح العالم غرفة صغيرة، وهذا ما أدى إلى فقدان أخلاقيات التواصل، ويؤكد أن أهل العولمة في علاقاتهم الاتصالية يشتغلون بتناقل المعلومات، ولا يباليون بتجاوب الذوات، فأخلاقهم أخلاق الواقعيين في تقديس المعلومات بما يشبه بتقديس الكلام الإلهي⁽²⁾، وهو مع ذلك يرى أن العولمة لن تستمر طويلاً، وأن وعي الشعوب هو أكبر من كل تلك المؤامرات التي تحاول أن تشتت الهوية لتبقى معالم التفرقة هي التي تفرض وجودها، لكن وعي أبناء الأمة وقوة الأخلاق تمكن الدول من تجاوز مثل تلك الأحداث الطارئة، ويؤكد أن العولمة ستفني نفسها بنفسها؛ لأنها تقف على أرضية صلبة، وسوف تنقلب عليها خططها ومشاريعها، وهو يحذر الشباب المسلم من الانخراط فيها، ولا سبيل لتجاوز آثارها إلا بالعودة إلى الدين الإسلامي، ويرى محمد الأطرش أن العولمة تعني أن السوق العالمية تندمج في كل نواحي الاستثمارات والاقتصاد، وتنقل رؤوس الأموال والقوى العاملة والثقافة في ضمن حدود حرية السوق، وستضع كل قوى العالم لها؛ وهذا ما يؤدي إلى تلاشي الهوية الوطنية واختراق الحدود، وتتلاشى سيطرة الدولة لمصلحة تلك المنظمات العالمية⁽³⁾، فهي نوع من الاستعمار الجديد يجعل الدولة غير قادرة على السيطرة على حدودها واقتصادها، وستكون فريسة سهلة لكل تلك المنظمات العالمية التي تسعى بلا شك إلى سحب كل سيطرة للدول على الاقتصاد والثقافة والحدود.

ولعل ما يؤكد الخوف من تأثيرات العولمة ما أكدّه (بيير هانس) من أن العالم الجديد اليوم يتسلط عليه: "وسواس تلاشي التمايزات...، والهويات الثقافية الشهيرة في طريقها إلى الزوال عن طريق التحديث والأمركة والتلفزيون"⁽⁴⁾، وهو ما يؤكد الخوف على الهويات التي تشكل خصوصيات الشعوب، وهو ما نجده عند أغلب الباحثين العرب؛ أمثال: (محمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن، وجميل سيار، وعبد الله عبد الدايم) وغيرهم.

(1) أبو حلاوة، كريم، الآثار الثقافية للعولمة لحظوظ الخصوصية في بناء عولمة جديدة، مجلة عالم الفكر، ع 3، 2001، ص 12.

(2) عبدالرحمن، طه، حوارات من أجل المستقبل، ص 87.

(3) الأطرش، محمد، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص 412.

(4) بابار، جان فرانسوا، أوام الهوية، ترجمة: حليم طوسون، ط1، دار العالم الثالث، القاهرة، 1998، ص 21.

في حين يرى فريق آخر أن لا خوف من العولمة على خصوصيات الشعوب، لكنهم يخافون ضمناً على استطاعة العولمة أن تغير المفاهيم الثقافية وتزرع بذور الانقسام؛ لأنها أحدثت قفزة نوعية في كل الجوانب الثقافية والاقتصادية والعلمية من خلال توظيف كل التقنيات من أجل سعادة البشر، فالكاتب (حامد عمار) يرى أن لا مناص من وضع أنفسنا في خضم تقلبات العالم الجديد وتتواصل معهم وي طرح تساؤلات عدة، مثل: هل نحن جاهزون للتلاقح الفكري والعدل الاجتماعي من أجل تأسيس ثقافة التنوع الإنساني المشترك⁽¹⁾، إن هذه التساؤلات تضعنا في خضم البحث عن إجابات، لا يخلو الأمر عنده من الحذر، على الرغم من إيمانه بأننا يجب أن نكون قادرين على استيعاب مضامينها، بغض النظر عما تحمله من بذور الفرقة وتشظي الهوية الثقافية للبلدان في ظل انحسار الخصوصية القومية.

فالذين يؤيدون العولمة يرون أن الجوانب الإيجابية كثيرة، ومنه أنها أحدثت تطوراً هائلاً في كل الميادين، وجعلت العالم في حركة ديناميكية كبيرة، وحرّكت الاقتصاد، وطوّرت كل نواحي الحياة بكل القيم التكنولوجية، وقرّبت الدول، وجعلت التواصل سهلاً جداً، ومن ثمّ علينا أن نعرف إلى أين نحن متجهون مع هذا التطور؟ وما الذي علينا فعله من أجل مسايرة العالم؟ وعلينا أن نتساءل مع كل هذا التطور للعولمة: هل نحن قادرين على أن نجعلها واقعاً، مع تعدد أقطاب القوة في العالم الغربي؛ لنرى كيفية التلاقح الحضاري والتنوع الثقافي الذي حملته العولمة⁽²⁾، وهذا الأمر واضح جداً في تبني العولمة بكل جوانبها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في تطوير البلدان، كما يرون أنها قادرة على دمج الشعوب وتقريب المسافات بين الدول من أجل رفاهية الإنسان، ويتناسى أصحاب هذا الاتجاه أن الشعارات الرنانة لم تبين دولا، ولن تقدم للشعوب سوى الضحك على الألقان بعيداً عن كل هذه الأمور، فإن ذلك الأمر يهدد الهوية الثقافية للدول، ويزيل الحدود بحجة التطور من أجل أن تتغلغل الدول الاستعمارية بعد أن تمحي كل خصوصية ثقافية.

وحين تسأل أي باحث يدعو إلى اعتناق العولمة فكراً ومشروعاً، فإنه يرى أن "ليس بوسع أحد أن يغفل الدور الحاسم للحاسبات الإلكترونية كسمة مميزة لثورة المعلومات الهائلة؛ التي اصطبغ بها النظام الدولي المعاصر في السنوات القليلة الماضية؛ لاسيما في مجال الدفاع وبناء القدرات العسكرية للدول"⁽³⁾، وهذا الباحث يرى أن العولمة تميزت بأربع سمات هي:⁽⁴⁾

1_ أسهمت في اختصار الزمن الذي يتطلّب بين ثورة وأخرى، كما حدث مع الثورة الصناعية وما تلاها من ثورات أخرى أسهمت في تطور العالم.

2_ لكي نحدد قيمة المعرفة الثقافية لكلّ فهم جديد للعولمة علينا أن نعتمد على ما خلفه العقل البشري من نتائج حصيلة الثقافة والمعرفة.

3_ إن مسايرة هذا التطور التكنولوجي في كلّ المجالات يتطلب استثماراً في كلّ مجال، سواء أكان ثقافياً أم اقتصادياً أو غيره، من أجل تنمية الملاكات الفاعلة في المجتمع، وجعلها تندمج بكلّ مفاصل الدولة، من أجل نشر كلّ هذا التطور.

1 ينظر: عمار ، حامد ، لمواجهة العولمة في التعليم والثقافة، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، ص36.

(2) المصدر نفسه: ص36.

(3) مصطفى، هالة، العولمة ودور جديد للدولة، مجلة السياسة الدولية، ع 134، 1998، ص10.

(4) المصدر نفسه: ص11.

4_ على الدول التي تتبنى العولمة ان تجعلها بديلاً عن كل ما كان موجوداً سابقاً، من خلال تبني سياسة ثورية واسعة، مثل: الاستفادة من الطاقة الشمسية، وبناء المصانع، والهندسة وتكنولوجيا المعلومات. وهذا بلا شك أكبر دليل على مدى ما وصلت إليه تلك الأفكار في تبني العولمة، وجعلها بديلاً عن كل ما كان سابقاً من تراث وتقاليد أخرى؛ لأنها بنظرهم لا تقدم شيئاً للعالم؛ لا أنها الأصلح لقيادة العالم وتجنبيه الانكسار والتخلف، إذ إن تبني مشاريع كهذه من لدن بعض الباحثين لم يأخذوا بعين الاعتبار الخصوصية لكل أمة، فالعولمة تدعو إلى نبذ كل القيم والتقاليد، وطمس الهوية الثقافية، ودمج الآخر من دون مراعاة للخصوصية الثقافية.

خاتمة البحث ونتائجه:

ناقش هذا البحث موضوع الهوية في الخطاب العربي، وخلص إلى النتائج الآتية:

- للهوية حالة خاصة؛ لأنها تمثل كل القيم والتقاليد المتوارثة التي تشكل هوية الأمة وخصوصيتها وتفردتها في المجالات كافة.
- عبرت الهوية العربية عن خصوصيتها، وهذه الخصوصية نابعة من طبيعة العرب بوصفهم أمة، ومن دين إسلامي الذي فرض وجوده في حياتها، فاستلهمت منه قيمها ونصوصها الشرعية.
- إن اللغة تكتسب أهميتها من علاقتها بالفكر الذي يتميز بالتجديد الذي هو أساس تحديد علاقتها بالهوية، فكما كان الخطاب الفلسفي قائماً على التجديد اتسمت تلك العلاقة بالتجاذب.
- إن العولمة فرضت نفسها واقعاً على الأمة، وعلينا أن نفهمها جيداً، ونأخذ منها ما يمكن أن يقدم لنا التطور والرقي، ونكون على درجة من الحذر في الكثير من توجهاتها.
- وضح البحث أن العلاقة بين الهوية والعولمة علاقة لا تخلو من تصادم شديد؛ فالأولى هي تلك القيم والتقاليد التي تشكل شخصية الأمم، في حين تحاول العولمة أن تمحو تلك الخصوصية من خلال فتح الأوطان وجعلها وطناً واحداً من دون مراعاة للخصوصية لكل بلد.
- لبعض الباحثين العرب توجهات تقتضي أن نكون على حذر مما تروج له العولمة من أفكار هدامة يمكن أن تمحو خصوصية الدول. وعلينا نحن العرب أن نكون على درجة من الوعي، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلى الدين الإسلامي الحنيف.

التوصيات:

- تعزيز مفهوم الهوية في الخطاب العربي الحديث بكل أشكاله من خلال تضمين مفاهيمها في المناهج التعليمية وإدماجها بكل مستويات الدراسة.
- ترسيخ القيم الأصيلة في نفوس أبناء الأمة ولا سيما الجيل الجديد الذي أصبح مفتوناً بطروحات الآخرين.
- تشجيع الخطاب الفكري والفلسفي الذي يربط الهوية بماضي الأمم وحاضرها، لكي يسهم في الحفاظ على الهوية الحضارية للأمة.
- مواجهة العولمة بأشكالها كافة التي تحاول طمس هوية الأمة، والتعامل معها بوعي من خلال الاستفادة من جوانبها الإيجابية والاستفادة منها في مجالات التطور العلمي.

- على الجهات الحكومية العربية تبني سياسة ثقافية إعلامية تهدف لحماية الخصوصية الثقافية للهوية العربية من الانجرار خلف دعوات العولمة الهدامة.

مسرد مصادر البحث ومراجعته:

- أبو حلاوة. كريم، الآثار الثقافية للعولمة لحظوظ الخصوصيات في بناء عولمة جديدة، مجلة عالم الفكر ، ع 3، 2001.
- أبو ضيف. أحمد سيد، الهيمنة الامريكية نموذج القطب الواحد سيناريوهات النظام الجديد، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 3، 2003.
- أحمد، بن نعمان، أشهدي يا جزائر، ط1، دار الأمة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 2002م.
- أدونيس، علي أحمد سعيد، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف). ط1، دار الآداب بيروت، 2002م.
- أشكروفت، بيل. م). دراسات ما بعد الكولونيالية. المفاهيم الرئيسية. ترجمة أحمد الروبي واخرون، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010م.
- لأطرش، محمد، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2000م.
- الأمين، جلال، العولمة ، ط1 ، دار الشروق، القاهرة، 2009م.
- بالفريز، عبد الإله، نقد التراث، ط1 ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014م.
- بايار، جان فرانسوا، أوهام الهوية، ترجمة: حليم طوسون، ط1، دار العالم الثالث، القاهرة، 1998م.
- بركة، بسام، اللغة العربية - القيمة والهوية، مجلة حوليات التراث، ع528، 2002م.
- بنعبد العالي، عبدالسلام، هايدغر ضد هيجل (التراث والاختلاف)، ط2 ،دار التنوير للنشر والتوزيع، بيروت، 2006م .
- تشومسكي، نعوم، العولمة والارهاب: حرب أمريكا على العالم والسياسة الخارجية الامريكية واسرائيل، ترجمة: حمزة المزيني، ط1، مطبعة مدبولي، القاهرة، 2003م.
- الجابري. محمد عابد، التراث والحداثة. ط1، المركز الثقافي العربي. بيروت ، 1991م.
- الجابري. محمد عابد ، نحن والتراث - قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط1، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1993م.

- الجابري، محمد عابد، حفريات من الذاكرة من بعيد، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997م.
- الجابري. محمد عابد ، العرب والعولمة- ثقافة الاحتراق، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1998.
- الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م.
- جاري، جويده، القطيعة عند العروي: شرط دخول التاريخ، مجلة أفكار وآفاق. الجزائر، ع 6، مج 4. 2015م.
- حرب، علي ، أوهام النخبة أو نقد المثقف، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996م.
- حساين. نادية. إشكالية التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر- قراءة تحليلية نقدية لأهم مشاريع النظرية التراثية. (طروحة دكتوراه)، الجزائر. كلية العلوم الاجتماعية والانسانية. 2015م.
- حمدي. مصطفى. (. العولمة آثارها متطلباتها وآثارها. ط1، مركز إدارة البحوث والدراسات، ابو ظبي،، 1997م.
- الدبو، ايسر فاضل ، و عباس ، جاسم محمد، الاستلاب الايديولوجي في رواية سيدات القمر، لخوخة الحارثي، مجلة دراسات للعلوم الانسانية والاجتماعية، ع 50، ج 6، 2023.
- روبنز. ر.ه. موجز تاريخ علم اللغة في المغرب. ترجمة أحمد عوض، ط1، عالم المعرفة ، الكويت، 1997م.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت، 2002
- الزموري، عبدالحق، مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة، ط3 ، مطبعة الساقى، بيروت ، 1993م.
- عبدالرحمن، طه، حوارات من أجل المستقبل ، ط1، دار الهدى، المغرب ، 2000م.
- شكر، حارث، وصايل، عارف عبد، حضور الذات والموضوع في تجربة الشاعر العراقي، عدنان الصائغ ، مجلة دراسات للعلوم الانسانية والاجتماعية، ع 1، مج 48، 2021
- عطية ، عاطف، في الثقافة الشعبية العربية بنى السرد الحكائي في الأدب الشعبي. ط ، مطبعة جروس برس، بيروت 2016م.
- عمار ، حامد ، لمواجهة العولمة في التعليم والثقافة، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.
- فوزي، فاروق عمر، التدوين التاريخي عند المسلمين مقدمة في نشأة علم التاريخ وتطوره، ط1، دار البارودي للطباعة والنشر، أبو ظبي، 2004م.
- محمود، زكي نجيب، تجديد الفكر العربي، مؤسسة الهداوي، القاهرة، د.ت.
- مصطفى، هالة، العولمة ودور جديد للدولة، مجلة السياسة الدولية، ع 134، 1998م.
- ميكشلي، لاسكندر، الهوية. ترجمة علي وطفة، ط1، دار الوسيم للطباعة والنشر، دمشق، 1993م.